صباح شرقي

الصَّباحُ كما عَهِدْناهُ، يستدرَجُنا إلى اتِّجاهاتْ
إنَّه نَرْدُ لُعْبَةِ الطّاولهْ
إلى انتقالاتٍ وخاناتٍ غيرِ محسوبةٍ ينقُلُنا.
فيه أنا كما في المساءْ
أُراقِبُ حُبُوري يتصاعدْ
كلّما تسرَّبَ الطّابورُ الّذي أنا فيهْ
يجعلُنا هذا واضحينَ في الصَّفْ
وعلى مُناداتِنا بالأسْماءِ قَدْ يُجْبِرُ الآخرينْ
وبِسَبَبِ هذا،
ربَّما سنحصلُ على ضِعْفِ حصَّةِ الّذينَ تسرَّبُوا قَبْلَنا.

■ إلْعَبْ في الوقتِ الضّائعْ
خسائرُ قد تنقلِبُ إلى أرباحْ.
هناك خسائرُ هي أرباحٌ من وجهةِ نظرٍ أُولىٰ
وأرباحٌ من وجهةِ نظرٍ ثانيةٍ هي خسائرْ
وخسائِرُنا ربَّما هي أرباحٌ ونحنُ لا ندري.

■ نَسِيتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِحُلُمِ البارِحهْ
كأنَّني وحدي يا صاحِ في ليلةٍ ممطرهْ
أتحرّىٰ أبوابَ سَبْعِ غُرَفْ
البعيدُ عنّي والّذي يُقيمُ قريباً منّي
في نومٍ كنومِ حَمّالي «أسواقِ الجُمْلَةِ» بعدَ العشاءْ
أعملُ كأنّني مع غاويةٍ تمنَّعتْ في اللّحظةِ الأخيرهْ
وَفَتَحْتُها، واحداً، واحداً، الأبوابْ
الّتي كان فَتْحُها محظوراً علينا
حتّى البابُ السّابعُ فَتَحْتُهُ
فماذا وجدتْ؟ لم أجدْ شيئاً.
أوراقٌ مُتَشابهةٌ، كانت منثورةً خلفَ الأبوابْ
مكتوباً عليها «إذا طالتْ لِحيتُكَ فامْشِطْها من أسفلْ
أو فاحْلِقْها، وهذا أمرٌ يَخُصُّكَ على أيِّ حالْ».
واستيقظتُ بعدَها.

قصة

امرأة المدينة، طفلة المدينة

- ١ -

ها هي مريم!
صحتُ: «مريم!» أمسكتُ بها: «مريم قفي!».
اقتحمتُ بها الهواءَ والزمنَ والدّهشة، وكانت هنا. مريم أجمل ما تكون، حين تقترب منّي أحسّ بدفء أنفاسها. إنّه إحساس فحسب، إحساس يأخذني لحظةَ أن أحدّق في هذا الوجه الترابيّ الذي دقّتْ ملامحه وتضاءَلَتْ حتىٰ يخيّل إليّ أنّها تكاد تطوّح برأسها الصغير ليستقرّ بين يدي لمجرّد أن ألمسها. مريم الآن تسقط رأسها الصغير بين يديّ فعلاً. عيناها مقفلتان وشفتاها يابستان ووجنتاها قد تشقّق جلدُهما وبانت من خلالهما خيوطُ دم قاتم تنبض ببطء بقدر نبض قلبها. دم إنْسانيّ يرفض الانطفاءَ المبكّر على الرّغم من أنّ الأمر بدا كما لو كان مقدّراً منذ الآن.
انكسرتُ بها.
«مريم. مريم!»
حاولتْ أن تفتح عينيها. بذلتْ مجهوداً مُضنياً، لكنّها ارتكنتْ إلى ذراعي واستسلمتْ لأنفاسها القويّة. ومرّة أخرىٰ صحتْ: «مريم. مريم» لكنّها كانت قد غادرتْ دفء يدي وبدأتُ شيئاً فشيئاً أفقد كلّ دفء. كانت يداي باردتين على الرّغم من ثقلهما الشّديد. وأصبحتُ أقلّب كفيّ كأنّني انتبهتُ فجأة إلى أنّ ثمّة شيئاً قد انطفأ منذ اللّحظة. أغمضتُ عينيّ تحت وطأة أبخرة سرّيّة.

- ٢ -

بكيتُ مريم بحجم الحزن الذي اكتظّ بي.

- ٣ -

قلتُ لها وأنا أجد صعوبة في أن أضبط سؤالي: «ما اسمكِ أيّتها الصغيرة؟».
حدّقتْ في وجهي بذهول وقالت بآليّة: «مريم. أنا مريم». قلتُ كالمأخوذ «يا لله! إنّها مريم».
قالت وكأنّها قرأتْ أفكاري: «لا. نحن نسكن هناك.» وحرّرت سبّابةً دقيقة وأومأت. لم أرَ سوى شريطِ الصّحراء وبضع خيام

علي الطائي

■ المهمُّ، قبلَ قليلٍ لمحتُ شهرزاد
في الطّابورْ
تبادلتُ معها النّظرات، وَهَزَزْتُ لها
ساعدي
وَأَسْمَعْتُها: أصبحنا كلُّنا في «الهوىٰ
سوا» يا أمّ اللّيالي
لا أبوابَ سبعةٌ هناك ولا هُمْ
يحزنونَ بعدَ اليومْ
هذا هو بابُنا السّابعُ. وأشَرْتُ إلى
الصَّفّ
■ المهمُّ، القضيّةُ تبقىٰ من شأنِكَ
وحدَكْ
تفتحُ الشُّبّاكَ أو تُغْلِقُهُ
تكونُ نَباتِيّاً أو تُفَضِّلُ اللّحمَ
الطّازَجْ.
أنا متأكّدٌ ألاّ أحدَ تحتَ هذه القُبّة
في الوقتِ الّذي تُفكّرُ فيه أنتَ
بِقَلْبِ العالمْ
يُكلِّفُ نفسَهُ بالتّجسُّس ضدَّكْ
أو إخْبارِ أحدٍ بنواياكَ الخاصّةْ.
أنتَ وحدَكَ تخلُقُ هذه الضَّجّةْ
ووحدَكَ تسمعُ صَخَبَها.
وعلى سبيلِ التّجربةْ
«إذا وجدتَ أن ليس هناكَ نفعٌ
وراءَ وقوفِنا في الطّابورْ»
اذهبْ واستوقِفْ أيَّ عابرٍ واسْألْهُ
هلْ سَمعَ شيئاً؟ هلْ شَعَرَ بِشيءٍ؟
شيءٍ غيرِ اعتياديٍّ مثلاً؟.
سيَرُدُّ عليكَ بهدوءٍ: لا لمْ أسمعْ
شيئاً
تَفَضَّلْ، هل تحتاجُ إلى خِدْمة؟.
إذنْ أمْسِكْ بِطَرَفِ الخيطِ الّذي
يُوصِلُنا
إلى بدايةِ الطّابورْ
فكُلّما تَسَرَّبَ الواقفونَ في الصَّفّْ
وَجَدتني أكثرَ حبوراً
وهذا يُجْبِرُ الآخرينَ هناكَ
على أنْ يُنادوا علينا بالأسماءْ
مَنْ يَدْري
رُبَّما سَنَحْصُلُ على ضِعْفِ حصّةِ
الّذين تسرَّبوا قبلَنا.

بغداد

عبد الإله عبد الرزاق

وسحابات بيض ممزّقة على امتداد الأفق المحصور بين الرّمال المائيّة وزرقة السّماء.

«إنّه هناك. هناك. انظرْ!».

وابتسمتْ في وجهي. من المؤكّد أنّها قالت: «هذا رجل أحمق. هل من الممكن أن يضيع أحدٌ هنا؟».

قلتُ مستسلماً لأفكارها التي كنتُ أراها في وضوح شديد على وجهها الصّغير الحائر كأنّي أخاطب نفسي: «أنا أحمق فعلاً».

أغمضتُ عينيّ، وحين فتحتهما رأيتُ ظلالاً تتحرّك منسحبةً على عجل. بدا الأمر كما لو كان ثمّة أشباح تقتحم عليَّ المكان وها هي تنسحب قبل أن أتابعَها.

ـ ٤ ـ

كانت الخيمة واسعة. هناك وسائد كثيرة، بعضُها أسطواني الشّكل بقماش من الأطلس البارد الملمس، وبعضها مربّع وبألوان فاقعة. كانت تتقوّس قاعدة الخيمة وقد فرشت أرضيّتها ببساط بدوي ذي ألوان حارّة جدّاً. كان المكان دافئاً جعلني اكتشف فجأة أنّي جئت من مكان بارد بالتأكيد. لكنّني لم أدرك للوهلة الأولىٰ، بدليل هذا الدّفء العميم الذي أثقل رأسي وبعث فيّ الخَدر بحيث أحسستُ ببرودة وسادة على وجهي.

هل نمتُ؟

فتحتُ عيني بعد قليل. رأيتُ رجالاً من الأعراب يدخلون الخيمة. كانوا يحيطون بي من كلّ جانب وإن كانوا قد ابتعدوا قليلاً. رفعتُ رأسي. رأيت بينهم الطّفلة مريم. كانت بزيّ عربيّ قديم. ها هي تنظر إليّ مثلما كانوا ينظرون بنظرات حارّة وصاعقة. هل هناك شيء أثار دهشتهم؟ ثيابي مثلاً؟ أتكون مريم هي التي أخبرتْهم بشيء عنّي؟ لقد بدا الأمر وكأنّهم مذهولون حقّاً من هيئتي.

نسيتُ كلّ شيء. هل أقول إنّ مريم هذه تشبه طفلتي، إذا ما حاولوا أن يستجوبوني؟ كيف سيكون الأمر لو قلتُ إنّها طفلتي فعلاً؟ وحين بدأتُ أتكلّم خُيِّل إليّ أنّ صوتي لم يكن قد غادر فمي. لقد كنتُ أتحدّث بحنجرة مقفلة. خُيِّلَ إليَّ أنّ هذه الخيمة العربيّة تحيط

بي مثل جدران غرفة. واكتشفتُ أنّني كنتُ وحيداً فعلاً وأنَّ كلّ شيء أراه أمامي قد يكون مجرّد هلوسات إنسان محموم.

صحت: «مريم. تعالي».

رأيتُها تجيء وسط هالة من أبخرة دافئة.

واستلقىٰ فوق ذراعي الوجهُ الشجيّ. قلتُ أخاطبها على الرّغم من يقيني الكامل بأنَّ صوتي لا يغادر حنجرتي: «أنتِ معي. مريم. هل تسمعين؟» رأيتُ أحد الأعراب يقوم واقفاً ووجهه ممتقع: «اترك الطفلة. إنَّها ابنتنا أيّها الغريب». وسمعتُهُ يأمرها بحدّة: «اخرجي الآن!» قلتُ: «إنَّها مريم!» قال وهو يربّت على رأسي المحموم كمن يعتذر: «إنَّها مريم حقّاً. كيف عرفت؟ اذهبْ لترتاح».

ورأيته يدسّ تحت البساط الذي كنتُ أتمدّد فوقه سيفاً عربيّاً ويقول لي وهو يخرج: سينفعك هذا وقتَ أن تقومَ.

وقمتُ إلىٰ اللّيل والبرد والأشباح والحزن وأنا أتحسّس قائم السيف العربي، شاعراً بكتفيّ خفيفتينِ متحرّرتين.

ـ ٥ ـ

أعدتُ الشّريط إلى الجهاز وأدرتُ المفتاح، تراءى لي أنّني رأيتُ وجه مريم مكتظّاً بالدّهشة. كانت تومئ إليّ. همستُ بضعف: «مريم. مريم» خيّل إليَّ أنَّ الصّوت كان يجيء من الجهاز.

ـ ٦ ـ

«مريم» قدّاس طفلة تمتلك بدهشتها وفرحها الجديد كلّ شيء هنا: الطريق الحجري، صنوبرات الأرصفة، تلويحات الصغار.

«مريم» طفلة المدينة السّعيدة. دخلتْ صبيحة هذا اليوم كنيسة المدينة الصّغيرة. كانت برفقة والديها. في الصفّ الأمامي بين الأكتاف والأضواء الباهرة بمواجهة الأيقونات الملوّنة والمصابيح السّاطعة بالضّوء الصباحي الباذخ، برائحة الأوراق الرّطبة والجدران المبطّنة بالدّفء والخوف. رسمت بيديها الصّغيرتين وهمست بصلاتها وعيناها لا تكفّان عن الحركة. كانت تنظر هنا أو هناك تبتلع الكلمات وتضيّق حاجبيها.

صرخ الأب. صرخت الأمّ: «مريم. مريم...».

همَت من عيني مريم دمعةٌ ودوّىٰ صوت انفجار وارتجّ جدار وأعقبه انفجار. وكان القدّاس مايزال بضع كلمات ممزّقة علىٰ شفتي مريم. دَقَّ ناقوس الكنيسة. ارتفع عمود من النّار. غطّىٰ البقعة التي كانت فيها مريم.

«أكملي صلاتَكِ يا ابنتي!».

قرعة ناقوس ضاجّ.

«أكملي صلاتك يا ابنتي! ارفعي وجهك، الكاهن ينظر إليك».

كان الكاهن يقبض على الكتاب الصغير ويقول وعيناه على الخارج: «طوبىٰ للشهداء...» وقطع صلاتَه...

«أكملي صلاتك يا مريم. القدّاس ينبغي أن يتمّ».

وقطع صلاته... ومشىٰ ومشىٰ معه الحزن.. ومريم تجهد في أن تحرّر جسدها الثقيل. وقد تضرّج خدّاها.

ـ ٧ ـ

لا أدري كم مضىٰ من الوقت وأنا هنا؟ من المؤكّد أنّني قد نمتُ بعض الوقت. كان رأسي ثقيلاً. وكنت أجد صعوبة في فتْح عينيّ. كنتُ أقترب من حافة النّوم بصعوبة. خُيِّل إليّ أنّني أسمع بكاءً متقطّعاً. فتحتُ عينيّ أخيراً. رأيتُ جهاز التلفزيون مايزال يعمل. أطفأته. وأصختُ سمعي.

ـ ٨ ـ

دوّىٰ انفجارٌ هائل أعقبه آخر ثمَّ آخر. أضاء السّماءَ فيضٌ من شهب ممزّقة. تقاربت الفضاءات المتّسعة. خالط الضوءَ الغباري هزيمٌ منكفئ، كان يتقطّع مرّة بعد أخرىٰ. صدى لقصفٍ مايزال الغبار المثقل بالتمزّق ينبئ بأنّه يتواصل في مساحات متباعدة. كأنَّ جدران الغبار تملك سطوة الحجز لقوّة الانفجار فلا تلبث أن تُشتّت صداه حتّىٰ تحيلَه إلى هذا التقطّع الذي يُنذر بالخوف والترقّب.

يا إلٰهي! من أين يتأتّى لقوّة القذف هذه القدرة العجيبة على أن تنصب جبلاً هنا وهناك.. جبالاً حقيقيّة وبسفوح تلوي الأعناق؟! جبالاً من التراب والصّخر والدّم ونثار اللّحم الآدميّ الذي مايزال محتفظاً بدفئه وارتعاشته ونبضه. وها هي امرأة المدينة.

انكسرتُ بها.

صحت «سعاد. سعاد!».

فتحتْ عينيها المندهشتين. عينانِ باستدارة قمرين أسودين. ويداها تحاولان نفض التراب والصّخر، تجهدان في أن تحرّرا جسدها المقيّد بالأنقاض والقصف. كانت تحاول أنْ تتابعَ خطَّ سير دمويّاً يفضي إلى ما يشبه شاهدةً مدفونة حتىٰ منتصفها كانت آخر لوحة رسمتْها، آخرَ كائن جميل نفخت فيه الرّوح. كانت عيناها على الخطّ الدّموي المتعرّج. هل أصابت اللّوحةَ شظيّةٌ ما.. في نصفها المدفون في الأقل؟

وهذا الدّم، دمُ مَنْ؟ سعاد أم اللّوحة؟

ينبغي لها أن تمسك باللّوحة. ستحاول محاولتَها الأخيرة.

في الوقت الذي بدأتْ.. كانت السّماء ماتزال ترعد، وأضواءٌ خاطفة تنزلق باتّجاهات مختلفة.

تحرّكتْ فعلاً باتجاه اللّوحة.

كانت الأرض تغوص بها. وكانت ثَمَّة كتلٌ من التراب تحاصرها من كلّ جهة.

ولم يعد هناك شيء.